الدبابة

قصة بقلم م. س. السّاروي

كان سعيد عاملاً بسيطاً يملك سيارة لوري ضخمة هي كل رأس ماله . وهو لم يصب من العلم قليلاً ولا كثيراً بل لا يحسن الكتابة ولا يقرأ الا بصعوبة، وكل علمه من الحساب ارقام يكتبها في دفتر بسيط مثله، ملطخ بشحم السيارة مثله ، يخط فيه عدد حمولات البرتقال التي ينقلها من يافا الى القدس . وكان يقيم في القدس في بيت بسيط مع زوجته وامه وابنته وولده ، ويعولهم مما يحصله من عمل السيارة . وكان يحب سيارته ويرعاها كما ترعى الام الرؤوم طفلا وحيداً ، ويمعن في تنظيفها وتلميع ظاهرها ويفخر بقوتها بين اخوانه السواقين ويدعوها متحبباً « الدبابة » ويضرب بيده على جانبها كالفارس يربت على كفل فرسه ، ويدعوها بطول العمر كأنها حيوان حي ينبض الدم في عروقه .

وكان يقول لابنه كمال « لا اريدك ان تكون سواقاً مثلي عندما تكبر، لا ، فهذه المهنة شاقة لا تصلح لك وانت ابن القدس ، بل اريدك ان تتعلم وتذهب الى الجامعة ،وتصبح استاذاً كبيراً او دكتوراً او تاجراً غنياً ، فتعيش احسن مما عاش ابوك . ولا تخف على مصاريف تعليمك ، فهذه « الدبابة» كفيلة بدفعها.» —نعم لقد عقد على السيارة آمالا كباراً.. ولكنها لم تتحقق . فقد جاءت سنة ١٩٣٧ واعلن الاضراب الكبير في فلسطين ، فقعدت السيارة عن العمل وقعد سعيد حزيناً لا يدري ما يفعل. كان يكره ذلك الاضراب الذي قطع رزقه ، ولكن لم يعترض على الذين امروا به لانه كان يحترمهم ويعقد عليهم آمالا كباراً لم تتحقق هي الاخرى . لم يكن يفهم شيئاً من امور السياسة ولم يكن يدلي برأي ،لانه لا رأي عنده، لا يفكر الا في سيارته وعمله واسرته ، وينتظر انتهاء الاضراب. ولكن الاضراب لم ينته بل طال اسابيع عديدة وسعيد يرقب صابراً حتى نفد جميع ما ادخره من مال. وفكر في بيع السيارة لولا ان صدته زوجته فاطمة عن عزمه فكانت تصبره وتطيب خاطره وتقول : « ان السيارة رأس مالك فاذا بعتها كيف نعيش بعد نفاد ثمنها ؟ ومن اين نأتي برأس مال جديد لشراء سيارة سواها ؟» وصبر سعيد ينتظر انتهاء الاضراب، والاضراب مستمر ، وازدادت ديونه ، فصار يكتبها في الدفتر بدل ارقام شحنات البرتقال ..

كان الثائرون من ابناء فلسطين يومئذ قد اشتد ساعدهم وتزايد عددهم فخرجوا الى الجبال جماعات جماعات يطلبون الموت للمغتصبين وينشدون حريتهم بلغة الحديد ولسان النار بعد ان اعيتهم الاحتجاجات والمظاهرات. وكان لا بد للسلطات من اظهار بطشها لتأمين سلطانها وللوفاء بوعدها الاليم — وعد بلفور — الذي قطعته على نفسها غدراً باحلافها العرب ، فوعدت به اليهود من مجرمي اوروبا ارض فلسطين العربية . وهكذا جلبت السلطات آلاف الجنود على عجل الى فلسطين لتقضي بهم على اولئك الثائرين . وصل الجنود ولكن لم يصل عتادهم الثقيل . ولم تمهل السلطات جنودها حتى تصل سياراتهم ، بل عمدت الى وسائل النقل العامة من بصات وقطارات . ولكن الاضراب الكبير شل حركة السفر على الطرق العامة وامعن الثائرون في خطوط السكك الحديدية نسفاً وتخريباً واوقعوا الرعب في قلوب الجنود والافاقين . فكيف تنقل السلطات جنودها الى مواقع هؤلاء الثائرين الجريئين ؟ لم تجد السلطات بداً من اللجوء الى وسيلة وجدت لها « مبرراً »في « قانون الطوارئ»— ذلك القانون الرهيب الذي يجيز للسلطات ان تقترف ابشع الجرائم ضد الناس بصورة «قانونية» مشروعة ... فوجدت في القانون مادة تخولها « حق » وضع اليد على اموال الناس للاستعانة بذلك على « توطيد الامن والنظام » ... فوضعت يدها على كل سيارة يسمع بوجودها رجال البوليس . وكانت في كثير من الحالات ترغم صاحب السيارة او سائقها على سوقها وهي محملة بالجنود . فصار اصحاب السيارات يسعون الى بيع سياراتهم للتخلص من هذا الشر الجديد . ولكن لم يشأ احد ان يشتري . كيف يشتري سيارة من لا يستطيع استعمالها في كسب قوت يومه ؟ وهكذا نزلت اسعار السيارات ..

وصاح سعيد بزوجته :« لولاك كنت بعت سيارتي واسترحت .اما الآن فالاسعار نزلت ، ولم تعد « الدبابة » تساوي ثمن حمار اجرب » . ولم تدر فاطمة ما تقول ، فاجهشت بالبكاء وهي تتمتم « لم اكن اعلم الغيب. »

ومرت ايام واذا باب الدار يطرق بعنف . ففتحه سعيد واذا هو امام ثلة كبيرة من رجال البوليس والجند .. جذبوه من عنقه وقالوا « اين سيارتك ؟» فقال « بعتها » فلطموه وقالوا « بل انت كاذب . الا تعلم ان للحكومة الحق في مصادرة السيارات المهملة ؟ » فصاح سعيد « ومن اعطى الحكومة هذا الحق ؟! » فلطموه لطماً شديداً وصاحت زوجته وصرخت امه باللعنات على الجند والبوليس والحكومة ، وبكى اولاده . ورجال الظلم يشبعونه ضرباً ولكماً ورفساً ، وسال دمه من فمه وانفه وتورمت جوانب وجهه وازرقت عيناه ، حتى صرخ « ماذا تريدون مني ؟» قالوا « السيارة .. » قال « ها هي في الكاراج خذوها .» ودار بهم حول البيت ففتح باب الكاراج وقال « ها هي خذوها .. لا سامحكم الله .» فامروه باخراجها ، فاخرجها الى الطريق . واذا امر يصدر الى الجنود، فدخلوها بسلاحهم ووقفوا فيها متراصين نحو ثلاثين او اكثر . وصاح الضابط بسعيد :«سق بنا » قال المسكين « الى اين ؟»فقال الضابط « الى باب الواد » .. فقال سعيد « ولكن البنزين الذي في السيارة لا يكفي لتسييرها ميلاً واحدا — انظر الى العداد — انظر الى مستودع البنزين .. وانا غير لابس ملابسي . »

ففكر الضابط لحظة ثم اصدر امراً فأسرع بعض الجند الى سيارة صغيرة ذهبت بهم لاحضار بعض البنزين . وقال الضابط لسعيد . « البس ثيابك على عجل ريثما يحضر البنزين » . فدخل سعيد البيت والجند قائمون على حراسته . وصاحت به امه ان يهرب ، ولكن اين المفر واولئك المفارير محيطون بالبيت وفي ايديهم السلاح؟ ثم لو استطاع الهرب فكيف يأمن من الجند على اسرته ؟ فاسرع يغسل وجهه .. ثم كأنه ذكر ربه فتوضأ وصلى ركعتين على عجل ولبس ملابسه وخرج بعد ان ودع امه وزوجته واولاده . وعادت السيارة الصغيرة بعد حين تحمل البنزين فملأوا سيارة سعيد . وركب وركب الضابط الى جانبه وامره ان يسوق..فساق الى باب الواد .

كان سعيد يعرف لماذا يريد الجنود الذهاب الى باب الواد . ففي تلك المنطقة جماعة من الثائرين لا يزيد عددهم على عشرة . وهؤلاء الجنود ذاهبون في سيارته .. للقضاء عليهم . . وتذكر سعيد زملاءه السواقين

ومعارفه وقال لنفسه : « سيدعونني خائناً .. يا ويلاه .. ماذا جنيت ؟ وماذا يحدث لاهلي اذا اصابتني رصاصة فقتلتني ؟ من يعنى بأمي وزوجتي واولادي ؟ لن يعنى بهم الزعماء لانهم سيدعونني خائناً .. ولكن لماذا افكر بالموت ، ولكل نفس اجلها » ووجد سعيد في هذه الفكرة سلوى وعزاء ، والسيارة تسير به وبالجند في شوارع القدس . وكانت الشوارع شبه خاوية من الناس . فاستبشر سعيد وقال لنفسه « ماذا يحدث لو عطبت السيارة على الطريق فتوقفت وافسدت على هؤلاء الظالمين خطتهم ؟ ايذهبون الى قتل بني قومي ، وفي سيارتي ، وتكون النتيجة احد امرين : إما ان انجو فتلازمني طول حياتي هذه الجريمة ومعها سمة الخيانة وما يتبعها من عار لا يغسله شيء ولا حتى ماء زمزم ؟ ام اقتل كالكلب ويقول الناس : خائن فطس واستحق جزاءه .. وتثكلني امي وترمل زوجتي ويتيتم اولادي ، فلا يجدون من يعينهم لانهم اسرة خائن » .

وتزاحمت هذه الافكار على رأس سعيد وهو يسوق هذا الحمل من الاعداء وحملا من الهم اثقل منه . وهو مستمر في سوق السيارة على ذلك الطريق الذي يعرفه كما يعرف ظاهر يده . حتى خرج من مدينة القدس واقبل على الطريق المنحدر المتعرج الذي يوصل الى باب الواد . وهنا نظر سعيد حوله والزم السيارة الجانب الايسر كعادته خشية ذلك الوادي السحيق الذي لا يكاد يرى الناظر غوره . وفجأة خطر ببال سعيد انه لا يبالي هذه المرة لو فقد السيارة وتحطمت .. ثم قال لنفسه « ليتني استطيع ان اقفز من السيارة بعد ان اوجهها نحو الوادي فتهوي الى قاعه مع من فيها من الجند ! » – ولكنه رأى انها فكره جنونية غير حكيمة .. فكيف يجرؤ على فتح الباب وهذا الضابط جالس الى جانبه يرقبه بعين الشر وفي يده مسدسه ؟ واستمر سعيد يدور بالسيارة حول الجبل . وفجأة قال لنفسه : « الشهادة .. نعم ! الشهادة !. وهل خير منها في الدنيا والآخرة !؟ » وقرأ الفاتحة في سره على عجل ثم قال : – « ارجو عفوك يا الله . انك تعلم السر واخفى ، وتعلم انني لا انوي الانتحار . ولكن كيف اسمح لهؤلاء الظالمين ان يقتلوا بني قومي المجاهدين ؟ وكيف احمل لهم الموت بنفسي ؟ فاغفر لي يا الهي وارحمني برحمتك واكتبني عندك في الشهداء .

وكن عونا لاولادي وزوجتي وامي . » وما ذكر اهله حتى سالت دمعة على خده ، فضحك الضابط لما رآها وصاح ساخراً « انتا يبكي ؟ .. متل مرا ؟ » فالتفت سعيد الى الضابط وصاح « بل خسئت يا عدو الله »! وادار السيارة نحو الوادي في سرعة البرق وهو يصيح « الله اكبر ! الله اكبر ! » وهوت السيارة فارتطمت بالسفح وقفزت في الهواء منقلبة على نفسها ، وتناثر منها الجند ووقع منها سعيد ايضاً فتدحرج على السفح وارتطمت السيارة مرة اخرى بسفح الجبل وتدحرجت وتدحرجت حتى استقرت في قاع الوادي السحيق .

وكان المجاهدون يرقبون من الجانب الآخر من الوادي ، فهرعوا الى مكان الحادث يجمعون البنادق وما انتثر من صناديق الذخيرة . وينتزعون ما يستصلحون من ثياب الجند . حتى سمع احدهم صوتاً ضعيفاً يردد في شبه همس « الله اكبر .. الله اكبر .. » فاقبل المجاهدون على صاحب الصوت ورأوا سعيد مضرجاً بدمائه .. وما ان ميزتهم عيناه حتى هتف : « الحمد لله .. نجوتم . » وحملوه وهو يئن ويتألم .. ثم سمعوا منه قصة ما حدث واوصاهم بأسرته واسلم الروح ووجهه يفيض بالبشر .. وسالت دمعات على تلك الذقون الكثة ، وحمله المجاهدون فحفروا له قبرا على سفح الجبل ووارووه التراب ووقفوا حول القبر خاشعين وقرأوا الفاتحة واستنزلوا عليه رحمة الله .. ثم ساروا متوغلين في شعب الوادي .

وانتظرت فاطمة وام سعيد عودة سعيد ولكنه لم يعد . واقبل الجيران يتساءلون وينتظرون . واقبل بعد حين رجل رث الثياب ملتف بعباءة قذرة ، فانكروه . فعرفهم بنفسه وانه رسول من جماعة الثائرين ونعى اليهم سعيد . فضجت النساء بالبكاء وشكون الى الله .

وجلس الجيران في ذلك المساء يستمعون الى الاخبار . وسمعوا المذيع يقول : « ان سيارة كانت تنقل خمسة وثلاثين جندياً قد سقطت في الوادي وهي تنقلهم من القدس الى باب الواد ، ولم ينج احد من ركابها ، وكذلك مات السائق » . فصاح احد الجالسين « بل خسئتم ايها الظالمون .. لم يمت والله .. ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله امواتا . »

لم يكترث الزعماء بأم سعيد وزوجته واولاده . ولكن الجيران جمعوا بعض المال فسددوا ديون الشهيد واعانوا اسرته .

ومضت السنوات ، وماتت ام سعيد قبل الهجرة . وشب اولاد الشهيد فتزوجت بنتاه وهما الآن بين اللاجئين . اما زوجته فتعمل في غسل الثياب واما ابنه كمال فانه لم يدخل الجامعة ولم يصبح استاذاً كبيرا ولا دكتورا ولا تاجرا غنيا .. ولكنه اليوم من الفدائيين يحرس الحدود في كل مساء مع رهط من اخوانه الاشاوس ، ويرقب اليوم الذي يزحف فيه مع الزاحفين لتطهير ارض الوطن وغسل عارها بدماء الغاصبين المجرمين ، ويرجو ان يلحق بأبيه في جنات الخلد .

لندن — م . س . ش . الساردي

المكتبة العصرية
للطباعة والنشر في صيدا وبيروت
تقدم :
- قصة النضال بين الاسلام والاستعمار في افريقيا الشمالية
- فوضى العالم الاسلامي الحديث
- يقظة العالم الاسلامي بعد حرب فلسطين

الكتاب الذي نصح المستشرق الفرنسي الكبير « بلاشير » كل مسلم بقراءته

مستقبل الاسلام

تعريب
شكيب ارسلان
ليسانسيه في الآداب

الآن في الاسواق :

ليل ودموع وسمراء

للكاتب الاردني التقدمي

الاستاذ محمد سعيد الجنيدي

دار الآداب للنشر ، عمان